

التدخل التركي في العراق:

محاولة لرسم دور جديد في ظل خريطة متحركة

م.سعد سلوم

وحدة البحوث والدراسات الإستراتيجية

لا يمكن فهم طبيعة وأهداف التدخل التركي في العراق على خلفية احتلال داعش لمحافظة نينوى، دون تحليل السياق التاريخي لانضمام الموصل عند انشاء دولة العراق الحديث، اذ عدت هذه المنطقة محطاً لصراع تركي -بريطاني- فرنسي.

واليوم يتكرر السيناريو عينه، مع اختلاف القوى الدولية التي تحاول ان تجد لها دوراً وموطأً قدم في محافظة نينوى، ولا سيما بعد تحرير سنجار التي تعد البوابة للسيطرة على بقية انحاء المحافظة والسيطرة على الحدود مع سوريا.

فقد كانت تركيا الكمالية تحاول مدّ النفوذ إلى أيزيدية سنجار، واستثمار العلاقات مع بعض زعمائها، بهدف تقويض السياسة البريطانية هناك في فترة الانتداب البريطاني، وكان البريطانيون من خلال زعيم الأيزيديين الموالي لهم يحاولون التصدي لهذا النفوذ التركي، وقد وصل الأمر بهم إلى اقتراح فكرة تجنيد أفراد من القبائل الأيزيدية يقودها ضباط بريطانيون للدفاع عن جبل سنجار في حال قامت تركيا بعمل عدائي، مع ما يمكن أن تحققه الخطوة من تطوير صلتهم بالبريطانيين.

وقد شكلت مناطق الأيزيديين ولاسيما في جبل سنجار ذات الموقع الاستراتيجي، أهمية بالنسبة للنفوذ البريطاني في شمال غرب العراق، في حين لم تحظ الشيخان التي اتصفت بهدوء نسبي بأهمية مماثلة والتي أصبحت تحت سيطرة سلطات الموصل بدون أي تدخل بريطاني كبير على ما يبدو(كما ذهب إلى ذلك عدنان زيان فرحان في أطروحته الموسومة:السياسة البريطانية تجاه الأقليات الدينية في العراق ١٩١٤-١٩٤١ المقدمة إلى كلية الآداب، جامعة دهوك، ٢٠٠٩).

وحيث نتابع اليوم الضربات الجوية لقوات التحالف الدولي ضد تنظيم داعش الذي احتل سنجار وشرّد سكانها، لا يمكن لنا سوى ان نفكر بالأهمية التي كانت لسلاح الجو في فرض سيطرة على هذه المنطقة ابتداءً منذ تأسيس العراق المعاصر، وهي

أهمية ما كان يمكن فرض سلطة بغداد من دونها على جنوب وشمال البلاد، وما كان بالإمكان بزوغ العراق كدولة مستقلة من دون اجنحتها وقنابلها الساقطة من السماء.

كان سلاح الجو الملكي إذن، القوة الرئيسة لفرض النفوذ البريطاني على تلك المناطق النائية، وكان للجبل الأيزيدي الشهير أهمية استراتيجية فائقة لقيادة سلاح الجو الملكي في بغداد بسبب قربه من الحدود الشمالية الغربية المؤقتة مع الجمهورية التركية، فضلاً عن محاذاته مناطق النفوذ الفرنسي في سوريا في الغرب. وهذا ما يفسر الاهتمام الكبير من جانب الاستخبارات البريطانية، وكذلك العدد الكبير من المخبرين المحليين لسلاح الجو الملكي بين القبائل الأيزيدية التي أصبحت خلال هذه الحقبة أهدافاً سهلة للدعاية التركية المعادية لبريطانيا، وللدسائس الفرنسية من جهة ثانية.

واليوم تشهد المنطقة صراعاً بين قوى دولية وإقليمية مختلفة، مع استخدام الوسائل القديمة والجديدة للتدخل.

ومخاوف تركيا تتبع من وقوع هذه المنطقة (لا سيما سنجار) تحت هيمنة نفوذ حزب العمال الكردستاني، لذا كان تدخلها واضحاً للحد من هذا الطموح الذي يهدد تركيا، لا سيما بعد تأسيس قوة عسكرية من المتطوعين تعرف باسم "قوة حماية سنجار" (HPS) بقيادة (حيدر ششو) الذي قدم من ألمانيا ليكرس نفسه لقيادتها من أجل تحرير سنجار، وقد رفع المقاومون الأيزيديون راية خاصة بهم أصبحت رمزاً لهم. لكن هدف تحرير المدينة من تنظيم "داعش" أصبح أكثر تعقيداً في ضوء صراع النفوذ بين أطراف سياسية عدة في شأن سنجار.

ففي الوقت الذي رفع الاتحاد الوطني الكردستاني تنظيماته هناك من مستوى هيئة إلى مستوى قيادة، نصّب الحزب الديمقراطي الكردستاني (KDR) (قاسم ششو) قيادة لواء عسكري يرأس قوة أيزيدية أخرى تعمل تحت مظلة البيشمركة. أمّا الفاعل الآخر والأكثر تنظيماً في سنجار فهو حزب العمال الكردستاني. وبذلك، ظهرت ثلاث ميليشيات أيزيدية تصارع ضدّ "داعش" من جهة، وتخوض صراعاً داخلياً كردياً في شأن هذه المنطقة الحيوية من جهة ثانية، وهي:

١- وحدات المقاومة في سنجار (YBS)، وتعدّ جزءاً من حزب العمّال الكردستانيّ (PKK)، وتتكوّن من أيزيديين من تركيا وسوريا، وتضمّ وحدة خاصّة بالنساء سمّيت "وحدات حماية المرأة" (YPJ)، التحق بها عدد من الأيزيديين الأوروبيين، لا سيّما من ألمانيا التي تعدّ البلد الأوروبيّ الأوّل الذي يضمّ أكبر جالية أيزيديّة خارج العراق. وقد جرى تدريب تلك القوّات التي تتكوّن من ١٢٠٠ مقاتل على يدّ وحدات الحماية الشعبيّة الكرديّة في سوريا، وهناك كثير من المتطوّعين الأيزيديين الذين يتلقّون تدريباتهم في محافظة الحسكة السوريّة. ومضى حزب العمّال الكردستانيّ (PKK) خطوة أبعد في تأسيس وحدة إداريّة أطلق عليها تسمية "الإدارة الذاتيّة لسنجار" في نهاية العام ٢٠١٤. وأسّس "مجلس أيزيديّ سنجار" في الوقت نفسه الذي ضمّ ٢٧ عضواً يمثلون النازحين الأيزيديين في مخيم نوروز في ديرك/المالكيّة في محافظة الحسكة، والمخيّمات الموجودة في تركيا وفي جبل سنجار، يتولّون مهمّة التأسيس لإدارة ذاتيّة في المقاطعة (حسكة). وقد وصف الرئيس (مسعود مصطفى بارزاني) في كانون الثاني ٢٠١٥ ذلك بأنّه "خطوة من قبل الـ PKK في اتّجاه تشكيل كانتون سنجار".

٢- وحدات حماية سنجار (HPS) التي تعدّ ثاني أكبر قوّة مسلّحة أيزيديّة، يقودها (حيدر ششو) وتتكوّن من ٥٠٠٠ مقاتل، وتضمّ ٤٠٠ امرأة. وتحفظ قيادة هذه القوّة بعلاقة مع حزب الاتحاد الوطنيّ الكردستانيّ، فقائدها عضو في الحزب. ونتيجة للصراع السياسيّ القائم من أجل السيطرة على سنجار، اعتقلت الأجهزة الأمنيّة في إقليم كردستان قائد HPS حيدر ششو في بداية شهر نيسان/أبريل ٢٠١٥، ما أجج مشاعر الأيزيديين، وانطلقت موجة من التّنديدات والمظاهرات في ٧ نيسان/أبريل في مناطق تواجد الأيزيديين وداخل مخيّمات اللاجئيين في إقليم كردستان مثل زاخو وغيرها. ذلك أن وزارة البيشمركة (KDR) تمنع أيّ قوّة عسكريّة مستقلّة، وتتلخّص سياستها في أن تعمل كلّ القوّات المسلّحة الخاصّة بالمكوّنات الدينيّة والقوميّة تحت مظلتها وتتبع أوامرها. ولا يقتصر غضب KDR على أنّ ششو شكّل قوّة خارج إطارها، وتسلمّ مبالغ ماليّة من جهة أخرى من دون علم الإقليم، بل في

تحديده سلطة الإقليم بتشكيل قوة مستقلة وإدارة وعلم مختلفين لهذه المنطقة (سنجار)، على حدّ تعبير رئيس إقليم كردستان بارزاني في الثامن من أبريل ٢٠١٥.

٣- القوة المسلحة الثالثة يقودها (قاسم ششو)، وتعمل تحت إشراف البيشمركة في الأراضي المحيطة بمزار مقدّس لدى الأيزيديين هو ضريح شرف الدين الذي حاول "داعش" إحراقه عند اجتياحه سنجار، وكان (قاسم ششو) والمئات من الأيزيديين قد دافعوا بقوة عن هذا المزار، ولم يغادروا المنطقة بعد اقتحام "داعش" سنجار في شهر آب/أغسطس ٢٠١٤.

وفي الذكرى السنوية الأولى لاكتساح سنجار في ٣ آب/أغسطس ٢٠١٥ أعلن البارزاني نيته جعل المنطقة محافظة مرتبطة بالإقليم، وعدم تسليمها إلى أيّ جهة كانت، ويرى الباحث المتخصّص في الشؤون الأيزيدية في جامعة Bamberg-ألمانيا (ماجد حسن)، أنّ هذا الإعلان يوضح أهمية سنجار في مستقبل الصراع السياسي في شأن قيادة إقليم كردستان، إذ إنّ الوزن الديموغرافي للأيزيديين فيها يصل إلى نصف مليون، ويشكّل ذلك عامل جذب للـKDR الذي بدأ يفقد قواعده الجماهيرية في إقليم كردستان بفعل المنافسة مع أحزاب المعارضة الكردية الأخرى، مثل الاتحاد الوطني الكردستاني وحركة التغيير، فضلاً عن تصاعد نفوذ التيارات الإسلامية في كردستان.

وينبأ دخول تركيا كطرف مباشر في الصراع عن نيتها في تحديد مستقبل المدينة، ومن خلالها وضع إقليم كردستان تحت حماية تركية مباشرة، فضلاً عن تقديم قوتها كضامن لمستقبل سنة العراق، وهذا التوجه سيضمن لها تأمين حدودها الجنوبية من جهة وتدعيم صورتها كضامن اقليمي ولاعب في منطقة يعاد رسم خريطتها الاثنية بعد مرور قرن على اتفاقية (سايكس بيكو) التي رسمت معالمها آنذاك.